من المهُود المظلمَة أشرق نورُ اللّه

ولد الكليم موسى بن عمران في مهد قلق يساوره الخوف والترقب، ثم أخفته أمه عن عيون فرعون في تنور، ثم ألقته في الماء وتركته للأقدار في صندوق، ثم نجاه الله من الحرق والغرق والتيه ليتلقى الألواح منه على جبل الطور.

وولد المسيح عيسى ابن مريم في العراء تحت جذع النخلة على الثرى المرمل، ثم وضعته أمه الهاربة في مهد خشن من مذود بهيم، ثم آتاه الله الكتاب والنبوة والبركة فنشرها في المشرقين من فوق جبل الزيتون !.

وولد المصطفى محمد بن عبد الله في مهد اليتم والعُدم لا يجد الدفء كمن له أم، ولا العطف كمن له أب، ولا اللبن كمن له مال، ثم رعى على بعض أهله، وسعى بمال زوجه، ودعا إلى سبيل ربه، ثم نزل عليه الروح الأمين بالرسالة الخالدة في غار حراء من جبل النور !.

* * * * *

تبارك الله ما أجل شأنه وأعز حكمه! شاء لنوره وبرهانه أن يشرقا من هذه المهود المتواضعة، ولمجده وسلطانه أن يظهرا في هذه النفوس الوادعة؛ لتكون آيته أبهر للعيون، ودعوته أبرع في العقول، وكلمته أعلق بالأفئدة. ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتهمت المعجزة، والتبس على الناس فعل القدرة.

من المهود الفقيرة النابية اختار الله – وهو ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:124] – أنبياءه ورسله، ثم أيدهم بالمعجزات إيجابًا للحق، وأمدهم بالآيات إرهابًا للباطل، فجاهدوا الشرك، وحاربوا الفساد، وهيأوا الأرض لغراس الخير، ووجهوا الإنسان إلى طريق الكمال، وأعدوا الأذهان لتقبل الرسالة الأخيرة والدعوة العامة: رسالة الحقائق والبراهين، لا رسالة الخوارق والقرابين. ودعوة العالم المعمور والزمان المؤبد، لا دعوة المكان المحصور والزمان المحدد.

والمعجزات إنما كانت الدليل على الحق والسبيل إلى الله أيام كان الحس أقوى من العقل، والسذاجة أَغلب على الفكر، فلما انجابت عن البصائر أغشية الجهل من طول ما

وعظ الأنبياء وعلم الحكماء ومحصت العبر، أصبح الوحي علمًا والإلهام حكمًا والبينات فهمًا والدعوة منطقًا والرسالة شريعة، وأصبح محمد اليتيم العديم الأمي مثلاً للإنسانية الصاعدة في طورها المفكر المعبر، يدعو إلى سبيل الحق بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة والمجادلة اللينة، ولا برهان إلا كتاب به، ولا سلطان إلا إيمان قلبه: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ [الإسراء: 90 - 93].

والواقع المأثور أنك تقرأ سير الأنبياء وتواريخ الرسل فلا يروعك فيها إلا سلسلة من المعجزات والآيات تؤيد النبي أو تصدق الرسول في مواقف إقناعه أو دفاعه أو شدته؛ إلا محمدًا صلوات الله عليه فقد آتاه الله مواهب الكمال الإنساني فميزه بالخلق العظيم والرجولة الكاملة والشخصية المهيمنة، فكان في ذاته معجزة وفي صفاته آية. تألبت عليه عناصر الشرك فأُصيب في بدنه، واتُهم في عقله، وأُوذي في أهله، وعُذب في صحبه، وحورب في دعوته، فما قابل ذلك العدوان الباغي إلا بعزمة الإنسان الأعلى، فجاهد بالصدق، وجالد بالصبر، وجادل بالمنطق، وصاول بالرأي، وأثر باللسان، وقهر باليد؛ وكل هذه الأمور إنما تصدر عن براعة الذهن وإعجاز البطولة. وتلك مزيته الظاهرة على أصحاب الرسالات. إذ كان كل نبي وكل رسول إنما يبين شأوه على قومه في بعض المزايا إلا الرسول العربي فقد تم فيه ما نقص في غيره من كمال العبقرية. فكان رسولاً في الدين، وعلمًا في البلاغة، ودستورًا في السياسة، وإمامًا في التشريع، وقائدًا في الحرب.

ثم كان في غار حراء، وفي دار الأرقم، وفي جبل ثور، وفي دار أبي أيوب، وفي المسجد الجامع، مظهرًا صحيحًا لروح الله، وإعلانًا صريحًا لسر الدين، ومثالاً عاليًا لصدق الجهاد، واحتمالاً ساميًا لمكاره الدعوة، وأسوة حسنى لجميع الناس.

* * * * *

إن حياة الرسول قانون إلهي خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا، وإن وسائل الجهاد التي جدد عليها أسلوب العيش، وأقام بها ميزان المجتمع، لا تزال عناوين ضخمة في صفحات العلم والسياسة والخلق.

كانت حياته صلوات الله عليه قائمة على الزهد والجهد، وزعامته دائرة على التضامن والتعاون. ملك الحجاز ونجدا واليمن، وجبى الجزيرة كلها وما داناها من العراق والشام، وظل ينام على فراش من أدم حشوه ليف، ويبيت هو وأهله الليالي طاوين لا يجدون العشاء، ويمكثون الشهر لا يستوقدون نارًا، إن هو إلا التمر والماء، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم في الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب، وإذا أقبل على أصحابه فقاموا له إجلالاً قال لهم: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا؛ إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العيد، وأجلس كما يجلس العبد. وكان ذات مرة في سفر، فأمر أصحابه بإصلاح شاة. فقال رجل: عليَّ ذبحها. وقال ثان: عليَّ سلخها. وقال ثالث: عليَّ طبخها، فقال الرسول علية صلاة ربه وسلامة: وعليَّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله، إنا نكفيك العمل. فقال: علمت أنكم تكفونني إياه، ولكني أكره أن أتميز عليكم. ولما استعز الله بقاسم الفيء وزعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله.

ثم كانت سياسته كنور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن، إنما هي شر الخالق العظيم استعلن في سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم، ثم دوى في غياهب الآفاق ومجاهل الأبد؛ ليكون الشعاع الهادي لكل ضال، والنداء الموقظ لكل غافل.

أما شخصيته فكانت أبلغ ما في رجولته. خضعت لها الرءوس الطاغية والنفوس العاتية والقلوب الغلاظ من صناديد العرب، فكانوا يسمتون سمته في الخلال، وينهجون نهجه في العيش. ويأخذون أخذه في المعاملة، ويجمعون على حبه وطاعته وتفديته إجماعًا لا يخرقه إلا الكفر بالله. فأقواله سنن تتبع، وأعماله عهود تحفظ، وآراؤه أوامر تطاع، وأحكامه أقضية تنفذ.

لذلك نذكره في كل أذان وفي كل صلاة من كل يوم، نذكر اسمه مع اسم الله لا تعبدًا به؛ فإن الشرك معاذ الله لا يكون غير هذا، إنما نذكر الله ونذكر بعده محمدًا كما تذكر القاعدة ومعها المثل، أو النظرية وبعدها العمل؛ لأن الله يوحي والرسول يبلغ، ويأمر وهو ينفذ، ويشرع وهو يطبق. فذكر الله استحضار لأوامره ونواهيه وتلك هي القدرة، وذكر الرسول استحضار لأقواله وأفعاله وتلك هي القدوة.

* * * * *

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة. فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالاً لذكرى رسول التوحيد والوحدة ونبي الحرية والديمقراطية، ودعاية السلام والوئام والمحبة.